الفصل السادس

دلتا الفولغا

تل ستيبان رازين

جاءت بعثة استراخان الأثرية لمتحف الأرميتاج الوطني إلى تل ستيبان رازين في ١٨ تموز عام ١٩٦٠م فهي من ناحية جاءت في حينها ومن ناحية أخرى متأخرة بعض الشيء. وهكذا نحن تأخرنا ثمانين عاماً.

هناك بالقرب من السفح الشرقي للتل مبنى لمصنع غير كبير للآجر وذهبت مع الغضار إلى الفرن سوياً عظام من القبور، كما حاول السكان المحليون أكثر من مرة البحث في التل عن الكنوز والدفائن، ودمر أثناء ذلك الكثير من القبور وبعد ذلك حاولوا تقديم العظام كأشياء مستهلكة ولكن رفضوا هناك قبولها على الفور بسبب إجراء عمليات التطهير الكامل من الجراثيم، وبدا القسم الكبير من القبور مدمراً حين وصولنا وعقَّد ذلك التنقيبات الأولية.

ويرتفع تل ستيبان رازين فوق السهول المحيطة به واصلاً إلى المنسوب المطلق ناقص ٤.٦م. وتقع سفوح التل عند المنسوب ناقص ٢٠م وبالتالي في مرحلة الارتفاع الأقصى لقزوين في القرن ١٤م وصلت أمواج البحر فقط إلى حد التل بحيث صار لبعض الوقت جزيرة. وفي هذا الوقت بلغت الأعماق في المحيط المجاور لتلنا من ٤-٥م. ولذلك لا توجد عليه آثار للتتر أو النوغاي الذين تقاسموا فيما بينهم السلطة على ضفاف الفولغا الأسفل، ولما انخفض مستوى البحر أيضاً ظهرت قرى صيادي السمك الروس وفي وقت ليس بالبعيد سكنت هنا قبيلة بوكينسكي الكازاخية التي انتقلت إلى الحضر.

وعند مجيئنا للتنقيب والاستطلاع استحقت طبيعة أديم الأرض الاهتمام من قبلنا، ففي القرن ٢٠م ارتفع القسم الكبير من المروج المحيطة بالتل وتغطى بأجمات القصب والتشاكان (اسم لنبات محلي - المترجم) وأشجار الصفصاف التي نمت بكثافة على ضفاف النهيرات المجاورة. وكميات البعوض الساكنة فيها شيء لا يمكن وصفه.

ولكن تصور بنفسك ذلك الوقت عندما كان فيه مستوى البحر أخفض بأربعة أمتار. كيف جرت الجداول بانحدار دون أن تستفيد المنخفضات المجاورة التي امتدت عليها المروج الرائعة بأعشاب الرعي الجيدة.

وهنا يجب أن يكون قد عاش الخزر الساكنون ببحبوحة، ولذلك افترضنا أن التعداد الكبير من السكان ترك مثل هذا العدد من القبور الذي يكفي لأغراض العلم. وبدأنا ونحن بكامل الرجاء بحفر آبار وخنادق السبر ولكننا حفرنا طويلاً في الغضار الخالي، ومر أسبوع قبل أن نقرر أن سفوح التل المنحدرة تدريجياً ليست إلا انهيالات ترابية ولو كان فيها قبور فإنها تكون قد غطست في الغضار الرملي الرخو.

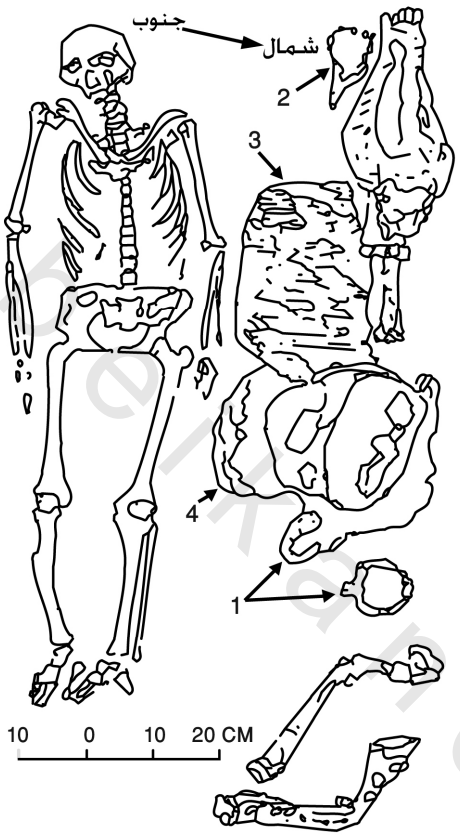

التنقيبات في تل ستيبان رازين عام ١٩٦١ م

قبر بتشينيغي:

١- ركاب. ٢- لجام. ٣- بقايا الجلد. ٤- بقايا السرج.

ويحدث كثيراً أن القبور تميز بالأرض غير المستوية، ولكن على قمة التل لم يكن هناك طبقة دبالية. والرياح مهدت السطح بحيث لم يكن فيه أيّ علامات تدل على القبور، وعلاوة على ذلك كان على التل الكثير من النتوءات التي ارتفاعها حتى ٠.٥م أو أقل ولكنها كانت مشكلة من النباتات العديدة التي ثبتت جذورها التربة وقاومت عصف الرياح، وكان سطح التل سابقاً مغطى بقشرة جافة من الغضار الرملي ذاته وتلك القشرة حفظت التل من الدمار، ولكن كان كل ما هو تحتها لا يمكن الوصول إليه لا بالعين المجردة ولا بالمسواة، إلا أن اللقى جاءت! ففي أحد الأيام اكتُشِفَت ثلاثة قبور مختلفة في طقوس الدفن كلياً فعند

الطرف الشرقي من التل اكتشفت جثة محروقة، وفي الطرف الغربي اكتشف قبر لرجل في وضع الجلوس وفي الطرف الجنوبي اكتشف هيكل عظمي لرجل مستلق على الظهر مع قدر بقرب الرأس، وسرعان ما تزايدت كمية القبور المكتشفة. وأضيف إليها واحد من تحت وآخر - مع حصان وعلاوة على ذلك عثرنا على قبور لكازاخيين من القرن التاسع عشر الميلادي وكانت غير ظاهرة لأن أقسام القبور التي فوق الأرض دمرت أثناء إقامة النقطة الجيوديسية الرئيسة. والأول من تلك القبور أوقعنا في الحيرة ولكننا انتبهنا بعد ذلك وأهلنا التراب من جديد على الهياكل المكشوفة، وفيما يتعلق بالقبور القديمة فإنها قدمت السبب لكثير من الأفكار والنتائج، ولكننا قبل أن نتحدث عن نتائج التنقيب سنحكي عن التلال الأخرى في الدلتا التي استكشفناها في عام ١٩٦٢م لكي تكون الصورة أكثر كمالاً.

التل الأميري

وتبدو من قمة تل ستيبان رازين مناظر رائعة فإلى الجنوب ينبسط سهل أملس يمتد بنعومة إلى ما تحت مياه بحر قزوين وإلى الشرق يقف جدار من القصب يتمايل مع ريح المساء الخفيفة، وغرباً وراء نهر بودرازينسكي تقف أدغال حقيقية وهي ملاذ لطائر البلشون والخنزير البري، وإلى الشمال ترتفع تلال بائيرو الأخرى وهي أيضاً مما لفت انتباهي.

وسيكون مستغرباً لو أن تلاً واحداً فقط استخدم كمقبرة. ألا توجد قبور على التلال الأخرى؟ لقد فكرت بذلك واستدعيت رفيقي جيليا وتحركنا على القارب الذي بحوزتنا صعوداً إلى أعالي النهر.

وانطلقنا في الطريق الأول ولم نحسب حساباً لصعوبات الطريق (الطريق يعني مجرى النهر الذي يتحركون فيه - المترجم) فهكذا ببساطة لم يتبادر إلى الذهن كم يمكن أن يكون التيار قوياً في مجاري الدلتا الهادئة! لقد سافرنا كالخزر القدامى مزودين بمجاذيف التوجيه والصاري وهذه طريقة التحرك من دون توقف، وفي الواقع وصلنا إلى الهدف المحدد - التل الميري، ولكن فقط بعد ٨ ساعات من الحركة المستمرة وخلال كل ذلك الوقت لم نستطع الخروج ولا في أي مكان للاستراحة على الشاطئ لأن جدراناً كثيفة من القصب انتصبت على الضفاف التي يستطيع فقط الخنزير البري أن يشق طريقه من خلالها. وتلوى النهر في ممر أخضر وكان من الواضح أن هذا المكان الهادئ كان دوماً قلعة طبيعية أكثر أماناً من جبال القفقاس. فأي فارس يحاول التوغل في خازاريا لا يستطيع أن يقتحم بسرعة المجاري العريضة المحاطة بالأجمات فهي ستحرمه

من مزيته الأساسية - وهي المناورة. بينما يتمكن السكان المحليون من التحرك بالقوارب والاهتداء في متاهة المجاري، وكانوا دوماً لا يمكن إدراكهم (لا يمكن القبض عليهم) عملياً ولديهم القدرة على إنزال أيّ ضربة غير متوقعة بالأعداء المنهكين المتحركين بلا جدوى.

ولكن، شتاءً يمكن أن يكون الأمر خلافاً لذلك؟ فمن المشكوك فيه! أن يكون الجليد الرقيق في النهيرات السريعة الجريان الذي يتكون في الشتاءات الباردة جداً قادراً على حمل الحصان والفارس وعتاده. وفي العهد الخزري كانت الشتاءات معتدلة ومثلجة ولهذا السبب يسقط (الفارس) شتاءً تحت الجليد حتى في الأماكن الضحلة وهذا يعني أنه قد خرج من الصف، وذلك لأن الفارس يتجمد في الريح في الحال وبالتالي يتوجب عليه قبل أن يستمر بالتحرك أن يشعل ناراً ويجفف ملابسه وخلال هذا الوقت يستطيع العدو المطارد أن ينفصل عنه ويتوارى. وفي القرون الوسطى لم يكن عند أي من الشعوب جيش قادر على قهر خازاريا. وأثناء تحركنا بالقارب صار واضحاً لماذا سفياتوسلاف على رأس فصائل المتطوعين المنتصرين اكتفى بسحق إيتيل السهلة البلوغ وترك من دون اهتمام قلب البلاد المغلوبة ولكن غير الخاضعة، فهو حافظ على قواته، وكان مصيباً بذلك. فالخزر الأقوياء في بلادهم لم يستطيعوا أن يتصارعوا مع المحاربين الروس على أرض السهوب الصلبة. وكان يكفي سحق مرتزقة الملك الخزري وبالتالي يزول الخطر من الشرق على الروس أما من يبقى من الخزر الأحرار في أجمات القصب فلم يكن لهم أيّ أهمية بالنسبة لإمارة كييف: دعهم هناك يقبعوا!

ولكن ها قد تجاوزنا المنعطف الأخير وانفتح إلى يمين القارب مرج صغير علا في منتصفه على خلفية السماء الزرقاء - الساطعة تلان مستطيلان من تلال بائيرو أوت بينهما قرية كازاخية صغيرة تبدو مهجورة لأن السكان اختفوا في المنازل من القيظ.

ولكننا لم نشعر في تلك اللحظة بأي قيظ ولا تعب وسابقنا بعضنا بعضاً وصعدنا إلى التل وباشرنا بالتنقيب ونحن مرهقون، وبأعيننا ميزنا بسرعة شظايا الفخار الصغيرة من بين أجمات الأشواك والأعشاب الجافة (المحترقة) وسرعان ما اكتشفنا على قمة التل قبراً حسب الطقوس الخزرية، وللأسف كان بحالة سيئة جداً لأن الكازاخيين ساقوا قطعان الأغنام عبر التل إلا أن هذا لم يكن مهماً في الحالة الراهنة، واكتشفت بذلك المقبرة الخزرية الثانية.

وعند المساء أخذت الحرارة بالانخفاض ببطء وأسرعنا بالعودة لكي ننجح بالوصول إلى البيت قبل الغروب لئلا نتعرض لخطورة أكبر، فالبعوض المختبئ نهاراً في الأجمات يمكن أن يلسع عابر السبيل المسافر ليلاً راكباً زورقاً حتى يقارب على الموت. ونحن لم نحسب أن السفرة ستطول ولم نحمل

معنا لا ثنائي ميتيل الافثاليك ولا شبكات مضادة للبعوض لوقاية الرأس والوجه من لسعه كما في زمن حرب سفياتوسلاف، وكان التحرك مع التيار سهلاً وانتهى الطريق بسلامة. إلا أنه لمتابعة العمل في هذا الاتجاه اتفقت للحال مع مضيفنا على محرك معلق (محرك يعلق بنهاية القارب للدفع بدلاً من المجاذيف والشراع - المترجم) لكي يصرف جيليا الذي عهدت إليه باستطلاع التلال التي في المحيط المجاور القوى فقط للاستطلاع وليس للتمرن على قيادة القارب بواسطة الشراع والمجذاف.

obeikandl.com

رحلة إلى غرب الدلتا

إن نجاح الطريق الأول أعطى السبب لمحاولة استكشاف الدلتا بالكامل وصياغة خريطة انتشار المقابر الخزرية، وبالطبع يجب أن يتم الاستكشاف على مستوى عالٍ وهذا يعني تأمين سرعة التحرك، وإيجاد الدليل الخبير لكي لا نتوه في مجاري الدلتا وإيجاد مكان للراحة الليلية وكان تأمين الأخير مهماً لأنه شيء أساسي أثناء الاستكشاف وهذا يزيد الانتباه للأشياء الصغيرة المختلفة، فالمراقب المتعب سوف يغفل طوعاً أو كرهاً عن تفاصيل أديم الأرض ويؤدي بنتيجة العمل إلى العدم.

وباختصار كان يلزمنا ميخائيل الكسندروفيتش شوفارين المعروف قديماً (لنا سابقاً - المترجم) مع قارب بمحرك ومساعد ذكي مثابر وهذا الأخير عبر عن رغبته في أن يصبح مؤرخاً فتياً في جامعة لينينغراد وهو ي. ب. سيدرينكو الذي كان فتياً معافى مدرباً ولا يخشى الصعاب واصطحبته للمشاركة في الاكتشاف عام ١٩٦٢م.

وكان هناك ثلاثة محاور محددة: في الدلتا الغربية وفي الدلتا الشرقية وفي القسم الجنوبي من الدلتا المركزية مع الأخذ بالحسبان أن كل طريق يتطلب بذل الجهود الكاملة وتخطيط الأعمال مع الاستراحات التي يمكن أن تتم في وضع أكثر هدوءاً للتنقيب في تل ستيبان رازين، وبالأخص أن هذا الغرض يجب أن لا يغيب عن البال، وربما كانت خطة العمل مجهدة للغاية ولكنها كانت واعدة بالنجاح، ولهذا السبب تقرر تنفيذها.

وفي ٢٣ تموز عام ١٩٦٢م لما أجرت المفرزة الأساسية تحقيقاً إضافياً لتل ستيبان رازين سافرت على قارب بمحرك في طريق بالقسم الغربي من الدلتا وكانت مهمتنا هي استيضاح أين توجد أيضاً الآثار الخزرية وأيّ شعوب أخرى تركت بالإضافة إلى الخزر آثاراً عن وجودها في دلتا الفولغا؟ ولاحت للأنظار من بعيد مرة بعد أخرى من الخفاء قبة كريملين استراخان، وأمسك بنا وجرنا التيار السريع للفولغا الكبير وامتد حولنا في كل مكان سهل واسع من الطمي أملس كسطح البحر الهادئ. ولا معنى للخروج إلى الشاطئ لأنه لو عاش الناس هنا في القديم لكان طغيان القزوين قد طمر رفاتهم تحت رواسب القاع. ولذلك عند وصولنا إلى قرية أكريانوفو انعطفنا في مجرى خوردون الذي يأتي من الفولغا الكبير إلى الغرب ثم يصب فيه ثانية على بعد ٣٠كم إلى الأسفل.

وتغير أديم الأرض بحدة، وتلوى خوردون بين تلال بائيرو المغطاة بالعشب المحروق، ولكن التفتيش الدقيق ذاته أظهر أن هذه المنطقة كانت غير مأهولة في القرون الوسطى، وعثرنا في أحد التلال على قطعتين صغيرتين من

الفخار الغُزّي وفي تلال أخرى على الكثير من شظايا العظام البشرية، نعم، هنا حاربوا ولكن لم يعيشوا ولم يدفنوا الموتى الأعزاء، وكلما تعمقنا أبعد إلى الغرب أصبح خوردون مشابهاً لا لمجرى دلتاوي وإنما لنهر سهبي عادي، وجاور أديم الأرض الذي حولنا «منطقة السبخات السهبية» وهي في الحقيقة تعتبر امتداداً له وأخيراً صب خوردوننا في بحيرة واسعة ضحلة تنمو فيها الأعشاب المائية بكثافة، وصار من الصعب السفر إلى أبعد، وفي الوقت نفسه لا لزوم لذلك. واستدرنا راجعين إلى ضفة مجرى الفولغا الملاحي الأكبر - باختيمير.

وانعكست صورة الصفصاف المائل فوق الضفاف على صفحة الماء وتهادت أغصانه بسلاسة مع تيارات النهر القوي وأشعة الشمس البازغة التي تتخلل من بين أغصانه لمعت على المياه. ووقف الصفصاف كصف الجند يحرس الضفاف من الانجراف ومن خلفه يمتد السهل والقصب النامي بارتفاع قامة الإنسان بمرتين. ويلوح من فوق القصب المتناسق المتمايل بهدوء اللفافات (أي الخطوط المحيطة - المترجم) الدائرية لتلال بائيرو. والمنسوب المطلق في هذا المكان من الوادي هو ناقص ٢٥.٦م أما التل المنتصب تجاهنا فهو ناقص ٩.٩م وكان هذا التل في زمن ارتفاع مستوى قزوين جزيرة.

وبعد أن تفرجنا على المنظر الطبيعي ودع م. أ. شوفارين الكثير الاهتمام أحد عابري السبيل وهذا قال: إن هذا التل يسمى «أطلال الشيطان» لأن شظايا الفخار والعظام متناثرة عليه. واستوجب هذا الخبر القيام بالتفتيش. وشربنا الشاي لكي نتحمل يوماً تحت الشمس. وتحركنا إلى الغرب بالطرق الضيقة (الممرات) التي تمتد عبر القصب إلى التل الموجود على مسافة ٥كم من ضفة باختيمير.

«أطلال الشيطان»

إن التل الذي وصلنا إليه كان في الحقيقة تلاً غير عادي وكان هذا واضحاً من الجوانب. فالتلال العادية لها جوانب ملساء تماماً متهايلة بصورة أكثر أو أقل، أما هذا فكان محفوراً بالمياه التي تركت على جسمه مسيلات جافة بعمق حتى ٢م. فمن أين بدأت تلك النهيرات. لقد كان ذلك واضحاً: إنها بقايا السيول المطرية، ولكنها أليست غير موجودة على التلال الأخرى؟ أجل ولا يمكن أن تكون! لأن مياه الأمطار سرعان ما يرتشفها الغضار الرملي الناعم الذي تتكون منه تلال بائيرو وبالتالي لا تتكون المسيلات. وإذا ظهرت تلك المسيلات فإن ذلك يعني أن المياه تتجمع في مكان ما في الأعلى ثم تسيل للأسفل.

وحالما صعدنا وعاينا أصبح كل شيء جلياً وواضحاً. فعلى قمة التل الواسعة كانت تبدو بوضوح آثار بقايا النسافات الترابية للغضار المرصوص بإحكام ومنها تبدأ مسيلات النهيرات مباشرة وفي غابر الزمان لما قامت البيوت هنا وسالت المياه من على السطوح على الغضار الرملي الهش لسطح التل لم تحدث تخريباً، وجر تلف البيوت وراءه تشكيل البرك في تلك الأماكن التي داس الناس فيها التربة ومن البرك نبعت النهيرات التي شوهت منحدرات التل وبملاحظة ذلك استنتجت بأن الاختلافات بين التلال التي قامت عليها القرى قديماً والتلال غير المأهولة (التي لم تسكن) ستظهر بسهولة فيما بعد، ووعدت هذه الطريقة بأن تكون مفيدة للدرجة القصوى أثناء المراقبة والرصد من القارب، ويمكن أن ينظر إلى جانب التل كيافطة مع دعوة لعالم الآثار إما أن يبدأ بالتنقيب أو أن لا يضيع القوى هدراً أدراج الرياح، ويتابع السفر راكباً قاربه. وبالفعل تأكدت هذه الملاحظة ووفرت علينا الكثير من القوى والوقت فيما بعد.

وفي هذا التل لم يكن هناك نقص في اللقى، بقع مربعة من النسافة تتناثر عليها قطع وكسرات صغيرة من الحديد الصدئ جداً ومن الفحم وعظام الناس القتلى، ويؤرخ الفخار الأطلال بدقة - بالقرن الرابع عشر الميلادي بمينائه الزرقاء السماوية وزخرفتها الزرقاء الغامقة بالضبط والدقة مثل التي في خرائب مدينة ساراي العظيمة. وأثناء الحفر وجدنا قطعتي نقد: فضية وهي دينار الخان جانيبيك (١٣٤٠-١٣٥٧م). وأخرى نحاسية كتابتها مطموسة عرفوها فيما بعد في الأرميتاج بأنها بولا (وحدة نقد - المترجم) من ستينيات القرن ١٤م.

لقية من «أطلال الشيطان»

ولم يكن ممكناً ظهور أي شك بأن هذا المكان كان قلعة تترية وحصنوها هكذا ببراعة! حيث كانت جوانب التل مقطوعة من الغرب والشمال مشكلة بذلك شاقولاً بارتفاع ١١م وكانت الجدران عند حواف الجروف مبنية بالآجر التتري (٢٢×٣٠×٤سم) الوردي المحزز والمشوي جيداً والمحضر يدوياً حيث تظهر بوضوح على سطوح قِطَعهِ آثار أصابع العمال الذين شووا الغضار قبل الشي والجدران غير موجودة حالياً لأن السكان المحليين تخاطفوها من أجل البناء وبقي منها الأنقاض فقط ومع ذلك التقطنا الآجرة السليمة المتروكة بالمصادفة لكي ننقلها إلى الأرميتاج وهذه الأطلال بالتأكيد كانت ملحوظة في القرن ١٧م وحتى مذكورة في «كتاب الرسم الكبير» في المذكرة التوضيحية لخريطة الأراضي الروسية. الموضوع في عهد بوريس غودونوف. وإنه لشيء محزن عندما تباد مدينة ولكن هناك دوماً أسباب تاريخية لذلك أما عندما تدمر آثار الأسلاف فذلك شيء مؤسف وهي بالتأكيد لا تزعج أحداً.

وبعد حفر عدة آبار للسبر تأكدنا أن الطبقة الحضارية في الأطلال تصل بجملتها إلى ٤سم وهذا يعني أن حياة الاستيطان كانت قصيرة ولم تكن هناك بقايا خزرية على الإطلاق. وهذا يعني أن القلعة بناها تتار القبيلة الذهبية أنفسهم على مكان غير مأهول سابقاً وهنا ينشأ سؤال: لماذا؟ أليس كما قيل سابقاً أن تل «أطلال الشيطان» كان في القرن ١٤م جزيرة ووصل العمق من حوله إلى ٦م.

والوصول إليه كان ممكناً فقط بالقارب وفي الطقس العاصف ليس من دون خطورة في ذلك. وهكذا من الذي أراد أو كان مضطراً أن يعيش هنا؟ هذا اللغز لا يمكن حله من دون الجغرافيا.

في السنين الألف الأولى جرى القسم الكبير من مياه الفولغا عبر الآختوب وكان القسم الغربي من الدلتا الحالية سهباً جافاً ولما ارتفعت المياه في الفولغا في القرن ١٣م صار يجرف بشدة الضفة اليمنى وفي النهاية شق سريره (مجراه) الحالي وحينئذٍ انطمر الآختوب بالرمل وأصبحت المجاري الشرقية ضحلة وتوقفت عن أن تكون طرقاً مائية مهمة للتجارة وانتقلت المراكب من الأرض الروسية إلى فارس في المجرى الغربي - باختيمير ولملاقاتها مخرت مراكب التجار الفرس.

وأغنت التجارة خانات القبيلة الذهبية وليس رحل السهوب المجاورة المتاخمة للفولغا من الغرب. ولحماية الطرق التجارية وتقديم الملجأ الأمين ومراقبة النظام في النهر العريض للمحافظة على سلطة خان القبيلة الذهبية على ضفافه أنشئت القلعة على الجزيرة، وطالما حدت أمواج البحر التل كانت القلعة حصينة منيعة.

كيف يزول المجد الدنيوي

قام عرش الخان جانيبيك في القبيلة الذهبية وكان مطمئناً في دلتا الفولغا. واهتز عندما كان في متناول مامايا وبدأ يترنح عند أقدام توختاميش وسقط تحت أقدام تيمور لنك في نيسان عام ١٣٩٥م وفي حومة القتال الدموي على ضفة التيريك اجتاح محاربو تيمور المحنكون القدماء قوات توختاميش شبه العسكرية متوغلين في السهوب الروسية الجنوبية حيث لم يلاقوا أيضاً مقاومة. وهرب توختاميش إلى البلغار تاركاً بلاده نهباً للمنتصر. وجمع فاسيلي ديميتريفيتش القوات وسد المعابر عبر نهر أوكي وحافظ على الأرض الروسية ولجأ الأمراء الداغستانيون كولي وتاوس إلى الحصون الجبلية ولكن الحصون أُخِذَت وقُتِل الأمراء. وفي شتاء عام ١٣٩٥م اتجه تيمور إلى الفولغا وحاصر مدينة حجي - تارخان (حالياً منطقة استراخان على الضفة اليمنى للفولغا) واستسلمت المدينة ولكن ذلك لم ينقذها وتركت للنهب والحريق وأصاب المصير نفسه عاصمة القبيلة الذهبية ساراي - برلي - خان. وكشفت التنقيبات عن آثار الحريق.

وكان شتاء عام ١٣٩٥م قاسياً للغاية ومات كثير من القطعان في السهوب وتضاعفت أسعار اللحوم وإذا كان الأمر كذلك فذلك يعني أن البحر «حول قلعة أطلال الشيطان» قد تجمد وأن مقاتلي تيمور العائدين إلى البيت عبر ممر دربنت أي على شاطئ بحر قزوين لم يستطيعوا أن يمروا بالقرب

من أسافل الفولغا. وما كان فيما بعد يمكننا أن نتصوره بسهولة وحتى لو توقعنا أمراً ما قد يبدو عرضاً غير دقيق فإن كل الصورة تستعاد في الذاكرة كحتمية ثابتة، وينتهي كانون الأول ويصر الجليد تحت حوافر الخيل وتسوط رياح السهب وجوه المحاربين، إنهم منتصرون وراجعون إلى البيت ولكنهم متعبون وجائعون ومتجمدون والطريق طويل إلى الأمام في الصحارى. وهم مضطرون لشراء الطعام من التجار - أصحاب دكاكين المعسكر بـ ٢٥٠ ديناراً من الدنانير الكيبيكية للخروف الواحد بالإضافة إلى أنه لا يوجد هنا أيّ غنائم تكفي للإعاشة! [في المحل نفسه].

اسمَعْ إلى الأمام قرية. بيوت وطعام. ونساء، في وسط حقول الجليد قامت قلعة غير كبيرة، ومن السهل الاستيلاء عليها، أجل، يجب احتلالها لأن العدو يسكن هناك، بالطبع هذا العدو غير خطير، وإذا مررت به يمكن أن لا تتذكره في العمر كله أبداً، ولكن في القلعة غنائم بإمكانها إطعام المحاربين وتقديم العلف للخيل واحتلال هذه القلعة هو بمنتهى السهولة، يمكن هكذا وهكذا يجب أن يكون قد فكر قائد المفرزة التشاغايسكية في عام ١٣٩٥م. ولو أنه فكر على كل حال بنسائه في حدائق بخارى أو تذكر سورة من القرآن لما استطاع قادة المئات (أي السرايا - المترجم) التافاتش وحتى المراسلون أن يوحوا له بتلك الأفكار أثناء التراشق بتلك الكلمات من قبل الفرسان العاديين البسطاء، كان في جيش تيمور نظام متين يتلخص بأن المقاتلين يطيعون الأمير والأمير يستمع للمقاتلين.

ويمكن التفكير بأن الانقضاض كان قصيراً والحريق أكمل الباقي، وكان حطام الأدوات الحديدية أو الأسلحة مصهوراً من شدة النيران ولم يكن هناك ولا قبر واحد ولكن كسرات العظام البشرية متناثرة في كل مكان. ورقدت أنقاض الأسوار والبيوت على التل طويلاً ولكن كانت خالية من السكان. وتحولت المدينة إلى أطلال خلال عدة ساعات.

وعندما انهينا الوصف انخفضت الحرارة وقبل أن نغادر هذا المكان أردت أن أدور حول التل عند السفوح لكي أراه من الأسفل ولاحظت في الجهة الغربية منه ليس بعيداً عن الحافة الصناعية شجرة أثل وكان من الغريب ظهور هذه الشجيرة الصحراوية هنا محاطة بالصفصاف والقصب والمروج الصغيرة الخضراء، وبعد التمعن أدركت أن الأثل نما على الطبقة الحضارية من الحاجز، وعلى ما يبدو لما تراجع البحر نمت شجيرات الأثل على رواسب الأمواج الرملية، ولكن هذا كان منذ زمن بعيد واستطاعت النباتات الأخرى أن تحل محلها وبقيت هذه الشجيرة لأنها نمت على تربة غير طبيعية وإنما تاريخية وهي

كانت كذلك من بقايا الماضي مثل حطام الآجر أو قطع الأواني المكسورة المتناثرة من حولها.

ودلت القطع على ماذا يمكن أن يفعل الإنسان - كيف تعامل الأثل مع عوامل الطبيعة القاسية فهي وحيدة هنا ولكن أقرباءها خنقهم القصب والصفصاف علاوة على ذلك وهنا اعتذر من «أطلال الشيطان» وأتفوه بشعر عمر الخيام[1] المترجم على وجه التقريب إلى حدٍ ما وعلى الأصح معناه:

رأيت طيراً يسكن في خرائب طوس
حط أمامه قحفة (جمجمة) كاي - كوس
وقال «الويل، الويل! يا قحف بنفسك انظري
أين المشاهير؟ أين الطبول؟ أين الحريم؟ أين المعبد؟»
مجد العالم يزول هكذا بالذات

تل توتون

انطلقنا بسرعة نزولاً مع التيار في نهر باختيمير وامتد من حولنا سطح قاع البحر المستوي الذي انكشف خلال المئة عام الأخيرة وصادفنا تلالاً ولكنها كانت غير مأهولة. ومن الواضح أنه قبيل ارتفاع القزوين فضل الناس العيش بالقرب من الماء وفي وقت الارتفاع كان لا يمكن فعل أي شيء على هذه التلال على العموم.

وعندما توسع النهر للغاية بحيث بدا يتحول تدريجياً إلى الغرب درنا إلى الشمال في مجرى آخر - الفولغا القديم وكان تكوين الأرض هو نفسه ولكن كيف تبدلت صفحة الأرض! لقد نما قصب هائل مباشرة من الماء في المجاري المنحرفة إلى الشرق وارتفع اللوتس فوق سطح المياه الهادئ وصار الهواء كثيفاً مشبعاً بروائح النباتات وبخار الماء. لقد كانت هذه بلاداً مختلفة تماماً.

لقد دلتنا الرحلة على الكثير وتوقفنا لأنه لا عند المجاري المجاورة للسهوب ولا في المنخفضات المستنقعية توجد آثار خزرية. والآن نحن نحاول العثور

وعاء من تل توتون (أعيد تركيبه)

١- هو غياث الدين أبو الفتح ابن إبراهيم الخيام أو في مجال الشك بين سنة ١٠٢٥ و ١٠٥٠م ون رياضياً وفلكياً وعالماً طبيعياً وشاعراً وفيلسوفاً - المترجم.

على تلك الأرض التي كانت وطناً للخزريين حتى دفنوا فيها أقرباءهم. فهناك يجب أن تكون تلال غير عالية متوضعة بالقرب من بعضها بعضاً. وأنهار هادئة بمياه نقية لا تكثر فيها الأعشاب المائية وبينها مروج وليس مستنقعات، ولما رأيت بعد ستة أيام من التجوال في الدلتا أن الأرض مشابهة للتي تصورتها بوضوح عملنا وتوقفنا ومضينا نستكشف تل توتون الشامخ بين مجريي تابولا وتاميزياك، وهنا عثرنا ثانية على أحد القبور الذي لا يختلف بشيء من حيث طبيعة الدفن عن القبور الخزرية في تل ستيبان رازين ودل هذا على أننا وجدنا الحدود الغربية لخازاريا.

وكانت قبور تل توتون سيئة للغاية وليست مثل التي في الدلتا الشرقية فالهياكل العظمية ملقاة مباشرة على السطح لأن هذا المكان عاصف والغبار الغضاري الرملي الذي تذروه الرياح لا يستقر، وكانت العظام بالأسمنت الغضاري الصلب لسطح التل وتغلظت أكفنا نقباً للتربة من حول الهياكل العظمية مكسورة والأواني ولكن هذا لم يكن بذي أهمية وبدا لنا الأهم بكثير هو ما يؤكد وجهة النظر الانطلاقية ألا وهي أن استيطان الشعب وأديم الأرض تطابقا مع بعضهما بعضاً بدقة وبهذه الدلالة استطعنا أن نرسم حدود المنطقة حيث عاش الخزر ثم استنتجنا كيف تغيرت الظروف الفيزيائية - الجغرافية خلال ألفي عام، وفي سبيل تحقيق مثل هذه الآفاق لا يؤسف لا على الأيدي المتخشنة ولا على الوجوه المنخورة بالبعوض ولا على التعب ولا على الجسم المتورم من تراكم الرصاص الخطير.

ومن تل توتون تحولنا إلى الشمال إلى استراخان الأرض التي اكتسبت مظهراً حضارياً، فكانت الحقول مزروعة والجداول مغروس الصفصاف من حولها وتتحرك الحافلات بسرعة على الطرق الإسفلتية جيئة وذهاباً، غير أن التلال كالعادة هي التي جذبت اهتمامنا، وفي النهاية على ضفة نهر تساريف عند تل موللين حيث تقع مقبرة تترية جمعنا حفنة من الأواني المكسورة ولكنها ليست خزرية وإنما غُزّية، وهكذا لم يعش الخزر في أطراف استراخان وإنما إلى الجنوب منها. ولهذا السبب منيت محاولات العثور على إيتيل في مكان حجي - تارخان بالفشل التام فهناك حيث السهب الجاف لا توجد أيّ قرى ومقابر خزرية.

رحلة في الدلتا المركزية

لم يتغير أديم الأرض من تل توتون حتى نهر بوزان العريض أما اللقى فكانت تصادف في كل تل تقريباً وظهر منها خاصة تل باراني المشهور على مجرى بولدي، فهو يقع على بعد ١كم من ضفة النهر ومن هناك جمعنا مجموعة من الأواني والكسرات الأكثر غنىً حتى من تل ستيبان رازين. غير أن محاولتنا الخروج إلى البحر عبر مجاري الدلتا وتفتيش تلك الجزر - التي زرناها مع أ. أ. أليكسين في عام ١٩٦٠م - مرة ثانية انتهت بالفشل فالقسم الأكبر من المجاري أضحل عند المصبات والمخرج إلى البحر كان مسدوداً بالأجمات الكثيفة من الشجيرات والقصب. إلا أننا عندما شققنا طريقنا إلى المتسع عبر الأضحال - بممر للمراكب حيث كان المجرى معمقاً - ظهر أن كل الجزر تغطت خلال ثلاث سنوات بمثل هذه الكثافة من النباتات بحيث كان من غير الممكن النزول إلى الشاطئ، وانتصبت الأشجار سياجاً حياً كثيفاً كان من الضروري فتح ممر خلاله بالفؤوس للمرور عبره، وبالطبع كان العثور على أي شيء في مثل هذه الأجمات مستحيلاً ولذلك استدرنا راجعين إلى تل ستيبان رازين.

واقترب العمل على التل من النهاية ونجحنا في تبيان أن القسم الجنوبي من التل استخدم فقط للمقبرة. وهذه الملاحظة دققناها أكثر من مرة وتأكدت في كل مكان وها هو أيضاً أحد ألغاز الإيديولوجيا الخزرية: لماذا فضلوا السفوح الشمالية؟ وإن حل هذا اللغز لم يكن في متناول اليد.

وحققت مفرزة الاستطلاع نجاحات كبيرة فقد وجد جيليا في التل الأميري الصغير ثلاثة قبور خزرية بحالة سليمة لا باس بها، وفي الكثير من التلال الأخرى المجاورة - بقايا قبور مخربة وجمع كمية كبيرة من الفخار، والآن صار واضحاً أن هذه البلاد كانت في العهد الخزري مأهولة بكثافة كبيرة جداً لأن القسم الكبير من القبور التي على سطح الأرض فنيت من كل بد بتأثير الزمن الذي لا يرحم وبالتعليمات التي أعطيتها وفقاً للظروف المحلية ربطت أماكن اللقى بواسطة المسواة (ميزان التسوية) مع العلامات الطبوغرافية وقد تطابقت مع المشاهدات التي قمنا بها في عام ١٩٦٠م: ولم يكن هناك أيّ لقية تحت المنسوب المطلق ناقص ١٨م. وهذا يعني أن البحر في القرن ١٣م تصرف لبعض الوقت في هذه الأماكن.

وأثناء العودة بالطريق الغربي التحقت بـ جيليا ووقعنا معاً على مشهد مهم - وهو مسكن خزري ومن المحتمل أننا صادفناه سابقاً ولكننا انتبهنا وفهمنا اللقى فقط بزيارة «أطلال الشيطان» وعثرنا في أحد التلال (تل شيكي) على بقعة من أرضية أحد البيوت /نسافة/ غاصت فيها قِطَع صغيرة من الأدوات الحديدية

والفخار، والأخيرة أعطتنا تأريخاً - لقد كانت خزرية وعلى ما يبدو ازدحم الخزر الذين لم يريدوا ترك أرض الوطن على بعض التلال أثناء طغيان القزوين وارتفعت المياه ببطء، ومن الواضح أن الشيوخ أملوا بطريقة ما أنهم سيعيشون إلى نهاية قرنهم ويتعيشون من الأماكن العالية ولذلك بنوا الأخصاص (الأكواخ) على التلال، وأثناء طوافنا لاحقاً بالدلتا صادفنا أكثر من مرة بقعاً مشابهة بيضوية الشكل ولكن أطرافها كانت دوماً غير واضحة ومشوهة مما شكل صعوبة في صياغة تصور هندسة البناء الخزرية وكان واضحاً فقط أن هذه المساكن التي وجدت كانت مشابهة للتي يعيش فيها الكازاخيون الآن.

رحلة في شرق الدلتا

في ١٦ آب عام ١٩٦٢م ارتحلنا نحن وجيليا والمخلص ميخائيل الكنسدروفيتش شوفارين إلى الشرق عبر المجاري التي صارت منظراً طبيعياً مألوفاً لنا، وانتقلنا في نهري بوزان وسومينيتس، هذان النهران العريضان يفصلان بدقة المنطقة التلية من الدلتا المركزية وهذا يعني خازاريا والسهول السبخية الممتدة إلى الشرق، وانحدرنا في نهر سومينيتس إلى المجاري التي عند أسافله حيث أصبح التيار أقل عنفاً بغض النظر عن تكوين الأرض المنحدر تدريجياً. ولكي نستريح بضع ساعات على الأقل من طنين البعوض وذباب الخيل /النعرة/ والبخار الثقيل لأجمات القصب التي تطوق المجاري الضيقة شققنا طريقنا في أضحال إيغولكنيسكي حيث حفرت الكراكة (الجرافة) قناة لتعميق المجرى الملاحي.

وتدفقت المياه في القناة كالمجنونة ولكن كانت مياه البحر في كل مكان حتى الركبة، ونزلنا مع جيليا إلى جزيرة مستديرة مشكلة من مجروفات الكراكة وإذ بعظم إنسان قديم جداً ومهشم، ثم قِطعة مدحرجة بالماء! واندفعنا نبحث وجمعنا مجموعة كاملة من قِطع الأواني الكبيرة المصنوعة من الغضار الأسود المرسب بصورة سيئة مع نقرات من أصابع الحرفيين القدامى وعلاوة على تلك القِطع وجدنا أيضاً قِطعاً من الغضار الرمادي لأوانٍ رقيقة ومن الحجوم الصغيرة، وهذه وتلك كانت معروفة عندنا لأن أواني أخرى مشابهة كنا قد وجدناها في القبور الخزرية فعلى ماذا دلت هذه اللقى؟.

لقد ثقبت الكراكة الطبقية الحضارية لقرية خزرية وألقت بقِطع من القرن ٦م من قاع البحر، والمنسوب المطلق لقاع القناة هو ناقص ٢٩.٦م وبما أن رواسب الرياح في هذا القسم من قزوين تصل إلى ٢م وفي زمن وجود القرية كان يجب أن يكون مستوى البحر أدنى بثلاثة أمتار كحد أدنى وهذا يعني أن البحر

وقف عند المستوى ناقص ٣٢.٥م ومثل هذا الرقم حصلنا عليه أثناء البحث عن سور دربنت وهذا يعني أن حساباتنا قد تأكدت.

وهكذا، وقعنا في النهاية على التربة الخزرية الأقدم. ووقفنا في الماء حتى الركب، وكان ما بين أخفافنا والطبقات الحاوية على الآثار الخزرية ١.٥من الرواسب القاعية. أجل إن خازاريا هي بكل معنى الكلمة أطلانتس الروسية وإقليم تلال بائيرو ليس إلا أطرافها الشمالية، والفرضية تحققت في الواقع والحقائق التي أكدت الأفكار صارت بين يديَّ.

إلا أن العودة إلى البيت كانت قبل أوانها وكان من الضروري رسم محيط خازاريا من الشمال لأننا رسمناه من الغرب.

وصعدنا في نهر كيغاتش العريض الذي يجري بين ضفاف سهبية منخفضة حيث لم نجد إلا لقى فخارية تترية تعود إلى القرن ١٤م. وكان هنا عشب جاف على المنحدرات ويهب نسيم خفيف وحار لا يشبه الجو الكثيف للدلتا وعند منعطف النهر شاهدنا المخافر المتقدمة للصحراء - الكثبان الرملية الهائلة. وهنا لم تكن آثار للفخار الخزري ولكن بدلاً من ذلك بدأنا نعثر على حطام من القِطع الغُزّية. وأقفلت حدود خازاريا. وطلعنا في آختوب وتقدمنا فيه بقدر ما سمح مجراه الملاحي وكان هناك مكان ترسب الرمل فيه لدرجة أن هذا النهر القوي صار يمكن عبوره بالمخاضة، وكانت أماكن كسرات الفخار الغُزّي على الضفة اليسرى لآختوب واسعة جداً ومن الواضح أن الرحل ساقوا قطعانهم إلى هناك للإشتاء لكي يعودوا في الربيع إلى رمال - الرين. ولا توجد هنا كسرات خزرية.

والآن بعد أن رسمنا حدود خازاريا صار يمكننا ويجب علينا أن نعطي جواباً عن سؤال: هل كان الخزر رحلاً؟ إن المنطقة التي توجد فيها الآثار الخزرية تصلح أقل من أي شيء آخر لتربية الماشية. فالمراعي الكثيفة تعطي إمكانية إطعام القطعان الكبيرة وشتاء يوجد هنا الملجأ في الغابات عند الأنهار وإمكانية تقديم الأعلاف إذا خزن الدريس (الأعشاب المجففة) ومن المحتمل أن الخزر ساقوا القطعان إلى المراعي المجاورة ولكن حتى هذا مجرد افتراض - فقط فرضية لا يمكن البرهان عليها ولا تعليلها. وكان صيد الأسماك والبستنة دوماً غريبين على حياة الترحال. أما سكان دلتا الفولغا فكانوا أصلاً هكذا وعلى الأرجح ظل تقليد حياة الترحال باقياً عند الأحفاد الأتراك الذين سكنوا في خازاريا. وهذا ما أعطى سبباً لكثير من الباحثين لأن يعتبروا الخزر شعباً رحلياً.

وعلى أيّ حال لم تعق الحضارة لا القيام بالحملات الطويلة ولا احتلال أراضي الغرباء ولا العيش على حساب الجيران المغلوبين، فكل هذا فعله الخزر بنجاح وليس خلافاً لذلك إن كان عندهم «قرى وحقول» كما قال الشاعر وإنما بفضله. وفي تلك الأزمنة البعيدة كانت الأموال ضرورية للحرب مرة بعد أخرى، وجاءت الزراعة ذات المردود الكبير بمحاصيل إضافية كبيرة أكثر من تربية الماشية الرحلية التوسعية.

وسمحت الطرق التي قطعناها في عام ١٩٦٣ بتدقيق الكثير من التفاصيل ولكنها لم تقدم أي شيء جوهري جديد. وبِقَول الجغرافيا - التاريخية كلمتها أخلى المكان (تنازل) علماء الآثار وعلم الآثار: القبور والأشياء المكتشفة فيها فالأولى تحدثت عن الموت والثانية تحدثت عن الحياة التي كانت وهذه وتلك لهما أهمية واحدة بالنسبة للباحث.

obeikandl.com